رحلتي نحو التعليم: من كره إلى حب!

رشا مروان علي

سوف أبدأ حكايتي مع التعليم منذ صغري، أو منذ بداية دخولي المدرسة؛ أي من الصف الأول الأساسي، حين قام والدي بعمل المستحيل حتى أدخل الصف الأول ولا أتأخر عن المدرسة، وذلك بسبب يوم واحد فقط في تاريخ ميلادي كان سيؤخرني سنة كاملة عن المدرسة، ولكن في النهاية نجح الأمر ودخلت المدرسة.

أنا أصغر طالبات الصف سناً، كنت دائماً ما أكون هادئة خجولة مركزة مع مدرستي، لا يستطيع أحد أن يشتت تركيزي سوى 3 طالبات كن معي في الصف؛ واحدة منهن والدتها معلمة في المدرسة، أما الاثنتان فكانتا لهما أقارب معلمات في المدرسة نفسها، وهذا الشيء كان يعطيهن الحق بعمل كل شيء في الصف دون خوف، فقد كن المميزات دائماً، وكل النشاطات والتعزيزات تعطى لهن، حتى وإن لم يكن يصلحن لذلك.

تلك كانت مشكلتي طوال المرحلة الأساسية، حتى أنني كنت أعود إلى البيت وانا أبكي لأمي ... وبخاصة أنني كنت الوحيدة في العائلة، إذ لم يكن هناك أحفاد غيري، فقد كنت المدللة عند الجميع، ولم أتعود على الإهمال، أو أن أحداً يأخذ كل الأدوار مني داخل الصف، فقد كانت أمي متفرغة لي، وجعلتني أدخل المدرسة وأنا أقرأ بطريقة ممتازة، ولا أنسى عندما كانت تعطيني الجريدة لكي أقراها لها قبل دخولي الصف الأول، وكنت أحسب أيضاً بسرعة، ومدرَّبة على الجمع والطرح كثيراً.

كنت أحس بنفسي أنني أفضل من زميلاتي كثيراً، فقد كانت علاماتي ما بين 85 – 92، ولكن لم أكن أعرف لماذا علاماتهن أفضل مني، لأنهن، في الحقيقة، لا يستحققن هذه العلامات أبداً.

ولا أنسى حتى هذه اللحظة يوم تسميع جدول الضرب، فلقد هددتنا معلمة الرياضيات إذا لم نحضر للمدرسة ونحن حافظات جدول الضرب، فسوف تعاقبنا عقاباً شديداً. ذهبت في اليوم التالي وأنا واثقة من قدرتي على الإجابة عن أي سؤال، وعندما بدأنا بالتسميع، أخطأت جميع الطالبات أخطاء كثيرة، إلا حين جاء دوري، فقد وقفت ولم أخطئ بأي إجابة، وعندما انتهيت، لم تقل لي ولا أي كلمة غير أنك "شطورة يا رشا، وبكرة رح نرجع نعيد التسميع كمان مرة"، ولكن هذا ما لم أكن انتظره منها، فقد كنت أنتظر الكثير من المدح، فلم ألبث حتى امتلأت عيناي بالدموع، وأصبحت من هنا أكره الرياضيات، ومعلمة الرياضيات التي كانت تنحاز إلى بعض الطالبات، وأصبحت أكره شيئاً اسمه معلمة وتعليم، وعندما كان يسألني أي شخص ماذا أريد أن أصبح عندما أكبر، كنت أول شيء أصرف النظر عن المعلمة، لأنني كنت أكرهها، كنت دائما ما أقول طبيبة.

عند انتهائي من الصف السادس، انتقلنا إلى مدرسة أخرى في البلدة، لأن مدرستنا كانت فقط للصف السادس، فانتقلنا إلى مدرسة مختلطة، وكنت سعيدة لأنني سوف أتخلص من عقدتي بوجود 3 طالبات ليس لهن معلمون أقرباء ... فعند بدء المرحلة الدراسية الجديدة، والتعرف على المعلمين، اكتشفت أني أحب تدريس المعلمين أكثر، وحتى أني أحببتهم أكثر من معلماتي، فلا يوجد عندهم شيء اسمه تحيز، أو ابن أستاذ، فكانوا معلمين رائعين فعلاً. ولا أنسى معلم اللغة الإنجليزية؛ فذات مرة عندما بدأ يشرح الدرس، وكنت أسابقه بكل كلمة يريد أن يقولها في درس في القواعد، طلب مني أن أقف مكانه، وأشرح الدرس، وفعلاً قمت مسرعة وشرحت الدرس كاملاً دون أن يقاطعني بكلمة، وحين انتهيت وقف وصفق لي، وقال لي: إنك طالبة رائعة، من درَّسك هكذا؟ وفي الحقيقة كانت زوجة عمي معلمة لغة إنجليزية، وكانت هي من لها الفضل في تفوقي دائماً بهذه المادة.

قضيت في هذه المدرسة من الصف السابع حتى الصف العاشر وأنا سعيدة، وأحصل على علامات عالية ... ولكن هنا نظرتي للرياضيات بدأت تتغير، عندما كانت معلمتي في المدرسة المختلطة رائعة في الشرح والأسلوب، لكنها كانت عصبية بعض الشيء، ولكن يكفيني أنها كانت تحبنا بصدق وكأننا أبناؤها، ولكن اكتشفنا أنها كانت مريضة بورم في رأسها، وبدأت تتعب كثيراً، وتأخذ إجازات، حتى أنها لم تلبث طويلاً إلى أن فارقت الحياة. لقد حزنت عليها كثيراً، وبخاصة أنها هي من بدأت تغيّر من كرهي للرياضيات إلى الأفضل. وجاءت بعدها معلمة جديدة صغيرة السن، كانت مميزة فعلاً في الرياضيات، وأصبحت معها أحصل على علامات عالية، على عكس ما كنت عليه في المرحلة الأساسية، ومن هنا أيقنت أن للمعلم دوراً وأثراً كبيرين على الطالب، وتحصيله، وحبه للمادة.

عندما انتهيت من الصف العاشر، انتقلنا إلى الدراسة بالبلدة المجاورة، ودخلت الصف الحادي عشر العلمي، وكلي طموح للثانوية العامة، ولقد أحببت المدرسة الجديدة بكل ما فيها، وكانت دائماً معنوياتي عالية، وذلك بسبب الهيئة التدريسية الرائعة، فجميعهم كانوا أساتذة لهم خبرة وافرة بهذه المرحلة، وكانوا يمدوننا بالدعم والقوة والثقة دائماً. وقد انتهيت من المرحلة الثانوية بتحصيل عالٍ، صحيح أنه لم يكن يؤهلني لكلية الطب كما كنت أطمح، ولكنه أهلني لأدخل كلية العلوم، وكنت أريد أن أدخل مجال التحاليل الطبية، فأنا أحب مجال الطب، وإن لم أقبل في كلية الطب، فلدي بديل هو تخصص التحاليل الطبية. وفعلاً، قبلت بكلية العلوم – فرع التحاليل، لكن والدي رفض رفضاً قاطعاً أن أدخل هذا المجال، لأنه يرى أنه غير مناسب لي، فهو لا يرى المناسب إلا معلمة، ولكنني لم أكن أحب هذا المجال أبداً، إلا أنه أصر على ذلك، وبخاصة على تخصص الرياضيات، فلم أجد أمامي خياراً سوى أن أتخصص في الرياضيات.

عندما أنهيت الفصل الأول، كانت مواد الرياضيات بسيطة وسهلة، ولكن مع بداية الفصل الثاني بدأت أرى أن الرياضيات الذي أخذته في الجامعة لا يمت للرياضيات الذي درسته، فلم أعد أحب هذه المواد، ولا أطيقها، لأن الرياضيات أساساً ليست المفضلة لدي، فعدت إلى والدي وطلبت منه التحويل عن الرياضيات لأدرس الأحياء، ولكن كان لديه معارف بمديرية التربية وأصحاب كثر، وكان واضحاً لي أنهم هم من كانوا ينصحونه بتخصصي، حتى آخر نصيحة أحضرها لي أن أحول تخصصي إلى أساليب تدريس العلوم، لأن فرص العمل فيه أفضل (معلمة) وأسرع للتوظيف.

حاولت أن أرفض وأقاوم، ولكني في النهاية استسلمت ودخلت هذا التخصص، نوعاً ما أحببته مع الوقت، وأنهيت دراستي في الجامعة بتقدير جيد جداً. تزوجت بعد التخرج وانتقلت للعيش في مدينة رام الله مع زوجي بسبب وظيفته، وهناك قدمت لمديرية التربية والتعليم، وفعلاً لم ألبث حتى تم طلبي للعمل بديلة في مدرسة صفّا وعملت لفترة شهرين.

لم أحب فكرة البديل كثيراً، فعندما أنهيت الشهرين وعدت إلى البيت طلبوني مرة أخرى، ولكني رفضت العودة بديلة، فقلت لها عندما يأتي دوري في التوظيف أبلغيني، لأني لا أريد أن أكون بديلة ... ولكنها ردت علي بعنف وقالت لي: إن لم تعملي بديلة لن يأتي دورك في التعيين.

جانب من مشاركة المعلمة رشا علي في لقاءات التكون المهني في منتدى المعلمين في نعلين.

قلت لها: لا يهم .. فلم أكن مستعجلة أصلاً على التعيين أساساً، ولم أكن أحب فكرة التدريس، أو فكرة كوني معلمة من صغري.

جربت أن أقدم لوظائف ثانية غير التدريس، ولكن زوجي كان أيضاً لديه نفس فكرة والدي، بأن مهنة التدريس أفضل لي ... فلم أوفق بمحاولة تغيير فكرة الوظيفة بأن تكون غير معلمة. ذهبت مرة لأقدم طلب توظيف في مكتب الوكالة، فلم يمضِ أسبوع على تقديم الطلب حتى طلبوا مني أن أعمل معهم بعقد حتى نهاية الفصل الدراسي الثاني، وفعلاً قبلت، وبخاصة أن المكان قريب، فقد كان في مدينة رام الله. كانت بداية صعبة بالنسبة لي بسبب الأعداد الكبيرة التي كانت داخل الصف، والتي تصل إلى أكثر من 50 طالباً، ولكني مع الوقت اعتدت على ذلك، وأصبحت انخرط بمهنة التعليم وأتقبلها نوعاً ما، حتى أنني أذكر وقتها أنني شاركت في ورشة عمل لمعلمي العلوم نظمها مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، حيث كانت هذه أولى الدورات التي آخذها. لقد أحببتها كثيراً، وبخاصة أنها كانت ورشة عمل، حيث كانت عملية وليست نظرية فقط.

في نهاية الفصل الثاني، تقدمت إلى امتحان التوظيف، وكان يعقد لأول مرة، وحصلت على تقدير جيد جداً، ولم ألبث كثيراً حيث تم مع ابتداء العام الدراسي الجديد إبلاغي بأن اسمي موجود على الجريدة من بين الأسماء التي تم تعيينها هذه السنة، وعندما رجعت إلى التربية، قالوا لي إنهم حاولوا الاتصال بي كثيراً، ولكن لم ينفع، فأنا وقتها تذكرت أني غيرت رقمي، لكن مع كل الصعوبات التي واجهتهم للوصول إلي، لم يكن أمامهم خيار سوى إبلاغي عن طريق الجريدة، وكان تعييني في بلدة جلجليا ورنتيس نصف مركز، وكنت أدرّس المرحلة الوسطى ما بين الصفين الخامس والسابع.

كانت البلدتان بعيدتين كثيراً عن رام الله، ولقد تغلبت كثيراً في مواصلاتي، حتى عندما أتى مشرفي قال لي، إني سوف أنتقل إلى مكان أقرب السنة القادمة، وأتت السنة القادمة ولم يتغير شيء، حتى جاء المشرف نفسه في السنة الثانية وقال لي: "أنت ما زلت هنا، يجب أن أقوم بنقلك"، وفعلاً في السنة الثالثة جاءني كتاب النقل لمدرسة بنات دورا القرع، وقد سلموني الصفين الحادي عشر والثاني عشر الأدبي لتدريسهما مادة الإدارة، والصف السابع مادة الرياضيات، لم أعترض، ولكن بيني وبين نفسي قلت: "وما علاقتي أنا بمادة الإدارة؟"، لكني مدركة أن هذا الشيء وارد في المدارس بأن يدرّس المعلم غير تخصصه، وقلت لنفسي إني سوف أقدر على هذا ... وفعلاً كنت أحضّر في البيت المادة جيداً، وأذهب إلى المدرسة وأشرح المادة دون الرجوع إلى الكتاب.

بقيت على هذا النحو لمدة 3 أسابيع. أحبتي الطالبات كثيراً، وقد كنت أحس بأنهن أكبر مني حجماً وأطول مني، ولكن هذا لم يزدني إلا قرباً منهن، على الرغم من أنني لم أكن مرتاحة كثيراً لأن المدرسة ما زالت مشوشة، والتقسيمات للمعلمات غير جاهزة، وبعد أن أنهوا التقسيمات وتوزيعات المعلمات، نتفاجأ بأن هناك معلمة زيادة في المدرسة، وطبعا آخر معلمة تأتي إلى المدرسة هي من تنتقل، وكانت أنا، وإذا بكتاب نقلي يأتي إلى مدرسة بيتين. ذهبت إلى المدرسة وقابلت المديرة، وإذ بها تقول لي إني سوف أدرّس الصف الأول الأساسي، ولكني لم أتقبل الفكرة نهائياً. قلت لها: أنا لا أستطيع أن أدرّس الصف الأول. أحسست أن تدريس الصف الأول يحتاج إلى خبرة وتخصص للمرحلة الابتدائية. حاولتُ جاهدة إقناعي، ولكن دون جدوى، فهذه المرة أنا غير مقتنعة أن أدرس الصف الأول، وبقيت مدة أسبوع في المدرسة وأنا لا أرضى الدخول إلى الصف نهائياً، وبعد أسبوع جاءني كتاب نقل إلى مدرسة جيبيا في بيرزيت، وكنت قد مللت وتعبت من هذا الوضع المرير في مديرية التربية والتعليم، والتنقلات العشوائية دون الربط ما بين التخصص والمادة التي سوف أدرسها.

وصلت إلى جيبيا، ودخلت المدرسة، وقابلت المدير، وقال لي إني سوف أدرّس الصفين الخامس والسادس لمادة العلوم، قبلت طبعاً، وذهبت إلى الصف، واذا بالصفين الخامس والسادس مع بعضهما في الغرفة نفسها، وذلك بسبب قلة أعداد الطلاب في الصف الواحد. ضحكت قليلاً، وقلت: كيف سأعطي الحصة لصفين مختلفين؟

جاءني أحد المعلمين وشرح لي كيف أعطي الحصة للصفين معاً. لم ألبث سوى يومين حتى عادت رحلة النقل المريرة لي، وجاءني كتاب نقل آخر، وإذا بي أكره التعليم، واليوم الذي كنت فيه معلمة، لأن هذه المدرسة الثالثة التي انتقل إليها خلال شهر واحد فقط، تعبت نفسيتي، وكان مدير المدرسة طلب بقائي في المدرسة ولكن التربية قالت لي إن كتاب نقلي إلى مدرسة صفا، وأنت درّست فيها من قبل، وهم يحتاجون إلى تخصص علوم، فخيروني وفعلاً قبلت الذهاب إلى صفا، لأنها أقرب لي، ولأني أعرفها من قبل.

ذهبت إلى مدرسة صفّا وأنا منهكة وتعبة من هذه التنقلات العشوائية التي ما زادتني إلا كرهاً لوظيفة المعلم. دخلت إلى المدرسة وقابلت المديرة، وإذ بها تخبرني بأنني سوف أدرّس الصف الأول. عندما قالت لي هذه الكلمة، أحسست أنه سوف يغمى علي. عدت إلى التربية في اليوم نفسه، وجلست مع المسؤولين وسألتهم كيف تبعثونني إلى مدرسة تريد معلماً للصف الأول، وأنتم تعلمون

بأني لا أريد الصف الأول، ولن أدخل إليه. لكني علمت بعدها أنهم في المدرسة قد بدَّلوا توزيعات المعلمات، وكل معلمة أخذت الصف الذي تريد، وما بقي شاغراً هو الصف الأول ... لقد كنت وقتها وصلت إلى مرحلة سئمت فيها التنقلات والبهدلة من بلدة إلى أخرى .. اتصلت مع مشرفي السابق الذي نقلني، وقلت له إنني لا أستطيع أن أدرّس الصف الأول، ولكنه هدَّأ من روعي، وطلب من مشرف المرحلة الأساسية زيارتي مباشرة، وفعلاً دخل معي إلى الصف، وحضر لي الحصة، وخرج من الصف يمدحني ويشجعني ويعززني كثيراً، حتى بدأت ألين قليلاً، واستمريت في صفّا أدرس الصف الأول الأساسي.

لا أخفي أنني في البداية كنت محبطة وتعبة مما مررت به طوال هذا الشهر، ولكن مع الأيام، بدأت أتعود على هذا الوضع ... ولا أخفي أني شعرت بالراحة في المدرسة كثيراً، وعلاقتي بدأت تتعزز بسرعة مع المعلمات هناك، وبدأت شيئاً فشيئاً أحب هذه المدرسة، وأحب طالباتي في الصف الأول. ومع الأيام بدأت أشعر بالسعادة لوجودي في هذه المدرسة، وأحسست أن كل هذا التعب الذي تعبته حتى وصلت إليها، لعله خير وفائدة لي.

أصبحت أستفيد من معلمات المرحلة الأساسية، وأطلع على خبرة غيري، وأطور نفسي أكثر وأكثر ... كما أن حب طالباتي الصغيرات البريئات لي كان يزيدني دافعاً وحباً لهم أكثر .. فمن هذه المدرسة، بدأت أحس بالتغيير في نظرتي للتعليم ومهنة المعلم، وبدأت أشعر بهذا في داخلي، وبأني لم أعد أكره المدرسة، ولا أكره التعليم، بل على العكس تماماً، لقد أصبحت شخصاً آخر، أبحث عن أي شيء يطورني ويعزز كفاءتي في التعليم، حيث شاركت في دورة في الحاسوب، كي أستطيع أن أقوم بكل ما أحتاجه وحدي، وبشكل مميز، فلا بد أن أتعلم مبادئ الحاسوب بشكل جيد وفعلاً تم ذلك والحمد لله.

بعد وقت قصير، أتيحت لي فرصة المشاركة في دورة لـ "الإيمديست" مدتها سنتان ونصف في أساليب التدريس، وقد استفدت منها كثيرا ... واعتزمت أن أكمل دراستي العليا في أساليب التدريس في جامعة أبو ديس، وفعلاً ذهبت وبدأت المشوار. وخلال الفصل الأول، وجدت صعوبة بترك طفلي الصغير الذي لا يتجاوز عمره عدة شهور، فأكملت الفصل الأول، وأجلت الفصل الثاني حتى يكبر ابني قليلاً، ومن ثم أكمل دراستي العليا ... .

شاركت، بعد ذلك، في ورش عمل نظمها "مركز القطان"، وكانت تجربتي مميزة، حيث تعرفت على أسلوب مختلف في التعليم، وأضفت لنفسي أساليب جديده مميزة، وبخاصة الدراما، والتعلم عبر المشروع، والتكون المهني، فجميعها تفتح المجال لإعداد معلم ذي قدرات وكفايات متعددة، وبالتالي تفتح المجال أمامه للإبداع والتميز وإعداد طلاب مبدعين وفاعلين في المجتمع.

مع مرور الوقت وخوض التجارب العديدة في الحياة، أدركت أن للمعلم دوراً وأثراً كبيرين في تنمية شخصية الطالب وتفوقه وكيفية إعداده للمجتمع، وكيف كنت لا أحب أن أكون معلمة في صغري، وأسباب ذلك، وكيف بدأت تتغير نظرتي للتعليم والمعلمة. ومن تجاربي طبعاً تعلمت كيف أتعامل مع طالباتي، وكيف أحبهن بصدق، وأعدهن للمجتمع طالبات مميزات ومبدعات.

مدرسة بنات صفًا الثانوية

جانب من مشاركة المعلمة رشا علي في لقاءات التكون المهني في منتدى المعلمين في نعلين.